سيميائيات الثقافة لدى جماعة موسكو-تارتو

الدكتور حبيب بوزوادة
جامعة معسكر-الجزائر

لقد استطاعت السيميائية أن تفرض نفسها منذ أن ظهرت للوجود خلال النصف الأول من القرن العشرين، بوصفها علمًا شاملاً يدرس منظومة الأنساق الدلالية التي يستعملها الإنسان، باعتبار أن حياة الإنسان ووجوده وفكره منظومة من العلامات (Système des Signes)، وقد نجحت بهذه الرؤيا في اقتحام مجالات الفكر الإنساني كافة، الذي لا يمكن أن يكون –أبدا- خارج العلامة،وهو ما جعلها لغة واصفة (Métalangage) مساوية للمنطق، وقادرة على القيام بوظيفته، مستمدّة مرجعيتها من اللغة كما قرّر ذلك دوسوسير (F .De Saussure)، "وبما أن اللغة هي أكثر الأنساق الدلالية تعقيداً وأكثرها ارتباطاً بالإنسان، فقد عُدّ النموذج اللغوي منطلقًا لدراسة الأنساق الأخرى غير اللغوية" .

وبفضل جهود دوسوسير السيميائية وكذلك جهود شارل سندرس بيرس (C.S.Pierce) تمكّنت السيميائية من فرض نفسها منهجاً قرائياً، ونظرية معرفية، وظهرت إلى الوجود العديد من المدارس والاتجاهات السيميائية في أنحاء العالم، تختلف من حيث مرجعياتها ما بين لسانية وفلسفية ورياضية واجتماعية.. ومن حيث آليات التعامل مع العلامة، وحدود ذلك التعامل، لكنّها تتفق على أهميّة العلامة ومركزيتها في التفكير الإنساني، ومن ثمّ جدوى الدرس السيميائي في متابعة العلامات، وتحديد شبكة العلاقات داخل النظامي العلامي، ومن أشهر الاتجاهات السيميائية: الاتجاه الأمريكي، والاتجاه الفرنسي، والاتجاه الإيطالي، والاتجاه الروسي، وأبر من يمثله جماعة (موسكو-تارتو) التي نحن بصدد الحديث عنها :

الإطار الإبستيمولوجي لسيميائية الثقافة:

نشأت سيميائية الثقافة في أحضان مدرسة (موسكو-تارتو) التي انبثقت أساساً عن مدرسة الشكلانيين الروس (Formalistes Russes)،وتمثّلت في صورتين؛ "في صورةٍ بنيويةٍ سوفياتيةٍ في جامعة موسكو، وفي صورةِ سيميوطيقا الأدب والسينما والثقافة في جامعة تارتو (Tartu) في إستونيا، ومن أعلام هذه الشكلية الروسية -التي انبعثت من جديد ونُقِّحت- بوريس أوسبنسكي (Boris Uspensky) ويوري لوتمان (Yuri Lotman)" بالإضافة إلى فلاديمير توبوروف (V.Toporov)، وقد مثّلوا جيلاً جديدًا من العلماء الذين سعوا إلى فرض تصوّر جديد للدرس السيميائي، يقوم بالأساس على عدم التشبّث بفكرة المحايثة (Immanence) والنصِ المغلق التي تبنّتها الشكلانية، من خلال التطلّع إلى ما هو أشمل من النص الأدبي، وأكثر اتّساعاً من اللغة الطبيعية، "فالنّص المغلقُ وهمٌ ضلّل كثيراً من البنويين، وألقى بالبنوية الصورية إلى الانسداد" .

كما استفادت سيميائية الثقافة من فلسفة الأشكال الرمزية لكاسيرر (E. Cassirer) التي تنطلق من مسلّمة (الإنسان حيوانٌ رامز) إذ لم يعد العقل يتّسع ليشمل فيض المعنى والسيولة الرمزية التي تتولّد عن الثراء الثقافي الذي يولد فيه الإنسان، ويعيش في وسطه.. فانتقل من طور الطبيعة إلى طور الثقافة، وهذا ما نلمسه في الأسطورة والدين واللغة والفن وكافة الأشكال الرمزية . وبالإضافة إلى ذلك مثلت كلٌّ من الماركسية وتصوّرات اللسانيات الوظيفية رافدًا مهمّا لسيميائية الثقافة أدّى إلى اعتبار الظاهرة الثقافية موضوعًا تواصلياً ونسقًا دلالياً يتضمّن عدّة أنساق (لغاتٍ طبيعيةً واصطناعيةً وفنونًا وديناتٍ وطقوساً..) وعلى ضوء ذلك اعتبرت جماعة (موسكو-تارتو) سلوك الإنسان تواصلاً داخل ثقافة معيّنة هي التي تعطيه دلالته ومعناه .

ووفق هذه الرؤيا يتحدّد مفهوم سيميائية الثقافة بوصفها "دراسة التلازم الوظيفي لمختلف أنساق العلامة" ، ذلك أنّ النص من منظور هذا الاتجاه له أكثر من وظيفة؛ جمالية، واجتماعية، وأخلاقية، وقانونية وغيرها، يقول منظّر هذه المدرسة يوري لوتمان: "الازدواج بين الوظائف لا يُعتبر فقط ضرباً من التكرار، ولكنّه يبدو أيضًا أمراً مشروعًا، بل

وضرورياً، فلكي يحقّق النص وظيفته ينبغي أن يتحمّل بعض الوظائف الأخرى" . إنّ سيميائية الثقافة ينظر إليها بأنّها "العلمُ الذي يعنى بدراسة الظواهر الثقافية باعتبارها عمليات تواصلية" ، وهو ما يجعل الظاهرة الثقافية بمثابة نصٍ منفتح على جميع أنساق الدلالة والترميز والتواصل داخل مجتمع معيّن.

الثقافة والنص الثقافي:

لم يكن الحديث عن الثقافة ممكنا قبل أن يسمي الإنسان الأشياءَ ويشير إليها، أي أنّ ظهور الثقافة ارتبط بظهور الرّموز والعلامات التي تكوّن نظام اللغة ، وعلى هذا الأساس فالثقافة هي ما يضيفه الإنسان إلى الطبيعة، هي العطاء الإنساني في مقابل المعطى المادي للطبيعة التي تمثّل المادة الخام، وقد عرّفها رالف لنتنون (Ralph Linton) بأنّها "كلٌّ مركّبٌ يضمّ الأشغال اليدوية، والمعتقدات، والفنون، والعادات المكتسبة من الجماعة، وكلّ ما ينتجه الإنسان من الأشياء" ، فالثقافة هي الخلق الإنساني ضمن مجتمع معيّن، ولهذا السبب كان لكلّ ثقافةٍ سماتها المحدّدة لها.

إنّ الثقافة كما يرى (لوتمان) و(أوسبنسكي) "ليست مطلقًا نظاماً عالمياً، بل هي نظامٌ فرعيٌّ يتشكّلُ طبق نمطٍ مخصوص" ، والخصوصية هي التي تمنح الثقافة حيويتها، وتزوّدها بسماتها النوعية، فهي من هذه الناحية نظامٌ من العلامات، تماما كاللغة؛ وهي بهذا الاعتبار لغةٌ، أمّا الفصل بين اللغة والثقافة فما هو إلاّ عملٌ تجريدي من الصعب تحقّقه عمليا، فإذا أمكننا تصوّر اللغة على أنّها ظاهرةمنعزلة، فإنّ عملها الفعلي يجري في نظامٍ ثقافي أعمّ يؤسس معه كلاً معقّداً .

وبالإضافة إلى الوظيفة الاتصالية للثقافة فإنّها تقوم بوظيفة بنائية عبر تنظيم العالم، فالثقافة تخلق محيطاً اجتماعيا حول البشر، هو الذي يجعل الحياة ممكنة، تمامًا مثلما يتيح المحيط البيولوجي الحياة العضوية للإنسان ، ولهذا السبب كانت الثقافة مركز الوجود الاجتماعي، وعلامة النشاط الإنساني.ويميّز روادُ هذا الاتجاه بين منظورين للثقافة: الثقافة من منظور داخلي، أي من منظور ذاتها، وهو المنظور الذي يتمثّله حاملُ هذه الثقافة ومستعملها؛ ثمّ الثقافة من منظور خارجي، أي من منظور النظام العلمي الذي يصفها .

فالثقافة من منظور داخلي هي نسقٌ مغلق، ومجالٌ مقفل، ومفهومٌ محايث، يبدو كلّ ما هو خارج عنها بأنه لاثقافة (non-culture)، "فهي نظامٌ والباقي فوضى" ، وبإمكاننا أن نمثّل لذلك بطقوس الديانات الأخرى، وأزيائها، وأساطيرها ممّا ليس جزءاً من ثقافتنا الخاصة، فإنّها ستظل مظاهر لاثقافية بالنسبة إلينا، ويحصر الناقدان (لوتمان) و(أوسبنسكي) الفارق بين الثقافة واللاثقافة في كون الثقافة هي وحدها من تستحق صفة (نظام سيميائي)، فيقولان: "السبل العديدة لتحديد الثقافة من اللاثقافة إنّما ترتد أساساً إلى أمرٍ واحدٍ، هو أنّ الثقافة في مقابلة اللاثقافة تبدو نظاماً من العلامات" ، ويقدّمان في مقارنة بين المفهومين العديد من الفوارق التي يمكن إجمالها في الجدول التالي:

الثقافة–culture	اللاثقافة - non-culture
نتاج الإنسان	الوجود الطبيعي
نتاج أصول متفق عليها	النتاج الطبيعي التلقائي
ذات قدرة على تكثيف الخبرة الإنسانية	تتصف بالخاصية البدائية للطبيعة

أمّا المنظور الخارجي للثقافة؛ فيعتبر الثقافة واللاثقافة مجالين يحدّد كلٌّ منهما الآخر ويحتاج إليه، فلا يمكننا أن نفهم الثقافة بعيدا عن اللاثقافة، لأنّ "الثقافة ستظلُّ أبدًا بحاجة إلى مثل هذا الضد، إذ تبرز الثقافة هنا طرفًا مقاوماً لضدّه، وبضدّها تتميّز الأشياء" ، فالثقافة تحتاج -حتى تتميّز- إلى اللاثقافة، فهي تخلقها وتستوعبها باستمرار، وذلك لأنّها -أي الثقافة- بحاجة إلى نقيضها الذي تحوّل إليه بعض المظاهر التي لم تعد عناصر ثقافية، وتحوّلت إلى كليشيهات (clichés)،وتضرب جماعة تارتو (Tartu) مثلاً بالعقل الباطن أو اللاشعور الذي أصبح سمة ثقافة القرن العشرين بعد أن استهلك الإنسان احتياطات التوسّع المكاني للثقافة ، وهنا يمكن الحديث عن تناسب طردي بين الثقافة واللاثقافة، فلكلّ نمط ثقافي مماثل في عالم اللاثقافة، فرغم أنّ الثقافة تسعى إلى توسيع مجالها لتشمل ما هو خارج الثقافة، إلاّ أنّ هذا التوسّع –من منظور الوصف الخارجي- يؤدي إلى امتداد مجال اللاتنظيم أيضا.

علاقة الثقافة باللغة:

يصوغ رواد سيميائية الثقافة تعريفا للغة ينطلق من تحديد ماهيتها وإدراك وظيفتها، يقوللوتمان:

"اللغة نظام من العلامات المنتظمة تقوم بوظيفة اتصالية (نقل المعلومات)، ويترتّب على تعريف اللغة بأنّها نظامٌ؛ مناقشةُ وظيفتِهَا الاجتماعية، فهي تؤمّن وتضمن تبادل المعلومات، وتضمن حفظها وتراكمها في المجتمع الذي يستخدمها" ، فمن ناحية الماهية تمثل اللغة في مقوّمين وهما العلامات (Signes) والنظام (Système)، أما من جهة الوظيفة فاللغة تقوم بالتواصل (Communication) ضمن إطار المجتمع، كما تقوم بحفظ المعلومات وضمان ديمومتها واستمرارها في الزمن.

ويتحدّث منظرو هذا الاتجاه وفي مقدّمتهم يوري لوتمان (Y. Lotman) عن اللغة بالكثير من السّعة والشمول، إذ يندرج تحت مصطلح لغة (Langue):

1-اللغات الطبيعية، ويقصد بها اللغات العادية الفرنسية والإنجليزية والروسية وغيرها.

2-اللغات المصطنعة وهي الأنظمة الإشارية التي يبدعها الإنسان، والتي تستخدم في مجالات تخصصية ضيّقة من النشاط البشري مثل الرموز المستخدمة في الرياضيات والكيمياء وإشارات المرور..

3-الأنظمة النموذجية الثانوية: وهي أنظمة سيميوطيقية تعتمد اللغة الطبيعية لكنّها أكثر تعقيدًا، كالطقوس، والفنون، وأنظمة التواصل الاجتماعي، التي تمثّل جميعها نظاماً سيميائيا عاما يدعى الثقافة

ويوصف القسم الثالث من أقسام اللغة بأنّهالأكثر خصوبة، والأقدر على التعاطي مع مظاهر الثقافة المختلفة، كالشعر والموسيقى والسينما والفنون وباقي مكوّنات الثقافة المختلفة، رغم أنها تعتمد بالأساس على اللغة الطبيعية.واللغة بوصفها نظاماً نموذجيا ثانويا "تتصل اتصالا وثيقاً بالحياة، تحاكيها، وتتغلغل فيها، إلى حدّ أنّ الإنسان قد كفّ عن التمييز بين المسمّى والاسم، وبين مستوى الواقع ومستوى انعكاسه في اللغة" ، ولهذا السبب يدعو لوتمان إلى أن تكون لغة الثقافة والفن والإبداع متميّزة عن اللغة اليومية المنبثقة عن اللغة الطبيعية بقوله: "يجب أن تتميّز لغة الأدب عن لغة الحياة اليومية، وأن تنماز تلك اللغة التي يتوسّل بها إلى إعادة خلق الواقع لغاية فنية عن تلك التي تستخدم لغاية إعلامية أو إخبارية" ، فلغة الثقافة والفن ينبغي أن تحافظ على تعاليها عن اللغة الطبيعية حتى وإن كانت هذه الأخيرة مصدراً أساسيا لا غنى

عنه، وهذا ردًّاعلى بينفنسيت (É. Benveniste) الذي أصرّ على أن اللغة الطبيعية هي وحدها القادرة على القيام بوظيفة ميتالغوية (Métalinguistique)، وهي التي تمنح الأنظمة الثقافية المختلفة دورا سيموطيقيا، معتبراً أنّ النماذج الثقافية لا تكون ذات وظيفة سيميوطيقية إلاّ بقدر ما تستعيره من اللغات الطبيعية .

ومع ذلك تقرّ (جماعة موسكو-تارتو) بحاجة الأنظمة النموذجية الثانوية إلى اللغة الطبيعية، معتبرة العلاقة بينهما حيوية وأساسية، تبرّر ذلك بكون "اللغات ملازمة للثقافة، ويستحيل الفصل بينهما، فليس هناك من لغة يمكن أن تحيا بغير أن يكون لها -في القلب منها- بنية اللغة الطبيعية" .

المدلول الثقافي والنص:

يتحدّد مفهوم النص (Texte) من منظور ثقافي انطلاقاً من مبدأ التعارض مع اللانص (Non-Texte)، فلا يمكن تعريف النص إلاّ من خلال معرفة نقيضه "اللانص"، فلكي يصير قولٌ ما نصا لابدّأن ينضاف إلى المدلول اللغوي مدلول آخر ثقافي يكون قيمة داخل ثقافة معيّنة، أمّا اللانص فيذوب في المدلول اللغوي ولا ينظر إليه إلاّ من خلال هذه الزاوية ، فالنص يتألّف من (مدلول لغوي+ مدلول ثقافي)، فإذا فقد دلالته الثقافية أصبح "لانص".

إنّ النص بهذا المعنى وحدة أساسية للثقافة، إنّه علامة متكاملة، أو مجموعة متوالية من العلامات اللغوية وغير اللغوية ، فمفهوم النص أوسع من أن يتحدّد بمدلوله اللغوي، إنّه من وجهة نظر جماعة (موسكو-تارتو) "ينطبق لا على الرسائل بالمعنى اللغوي العادي فقط، بل ينطبق أيضاً على أي حاملٍ لمعنى نصي متكامل، ينطبق على احتفال، أو على عملٍ فني جميل، أو على قطعة من الموسيقى، وليست كلّ رسالة باللغة الطبيعية نصاً من منظور الثقافة" .

دراسة النص الثقافي لدى جماعة (موسكو-تارتو):تقوم الجماعة بدراسة النص الثقافي وفحصه على ضوء المشكلات التالية:

- تحديد طبيعة النص من حيث هو علامة متكاملة، أو متوالية من العلامات، ويمكن التمثيل لهذه الأخيرة بالمأثورات القديمة والأساطير التي يتمّ إدماجها في أفلام معاصرة،

من دون أن تفقد طاقتها الأصلية مع تغيّر في وظيفتها التي تصبح جمالية بعد أن كانت أسطورية أو شعائرية .

- مشكلة المرسل والمرسَل إليه: إن إنتاج النص الثقافي يتمّ عبر مراعاة موقع "المتكلّم" أو موقع "المستمع"، وعلى هذا الأساس يمكن التمييز بين ثقافة تتجّه نحو المخاطَب إذا كانت تستند إلى مبدأ "قابلية الفهم"، من خلال الحرص على الوصول إلى الحدّ الأدنى من التقليدية، في سبيل الاقتراب من عالَم المتلقي. وثقافة تتجّه ناحية المتكلّمسمتها الانغلاق، بسبب صعوبة الوصول إلى معناها أو استحالته، ولذلك فهي ثقافة من نمط باطني، مثل النصوص الدينية والتنبؤية، والشروح والتفسيرات والشعر.ففي الاتجاه الأوّل يكيّف المرسل نفسه ، ويحاول الاقتراب من عالم المتلقي، وفي الاتجاه الثاني يُطلب من المتلقي أن يكيّف نفسه وفق نموذج المبدع .

أشكال العلاقة بين النص الثقافي والنص اللغوي :

لقد تقدّم أنّ جماعة (موسكو-تارتو) تعتبر الثقافة لغة نموذجية ثانوية، وهي ذات ارتباط وثيق باللغة الطبيعية، وبالتالي فإنّ العلاقة بين النص اللغويوالنص الثقافي تتحدّد عبر الأشكال التالية:

الشكل الأول: النص اللغوي ليس بالضرورة أن يكون نصًا ثقافياً، وذلك مثل النصوص الشفوية في ثقافة تنحو نحو التدوين، فإنّ هذا النوع من الثقافات لا يحفظ النصوص الشفاهية.

الشكل الثاني: يمكن لنص في لغة ثانوية بعينها [نص ثقافي] أن يعدّ في نفس الوقت نصاً في اللغة الطبيعية.

الشكل الثالث: قد لا يكون النص الثقافي نصاً لغوياً في لغة طبيعية معيّنة، ولكنّه يمكن أن يكون في نفس الوقت نصاً في لغة طبيعية أخرى، مثل (الأدعية والمأثورات الدينية باللغة العربية لدى شعوب غير عربية) .

إجراءات تحليل النص الثقافي حسب جماعة (موسكو-تارتو):

يقوم تحليل النص لدى جماعة (موسكو-تارتو) على ما يسمونهإعادة البناء، وهو إجراء من

شأنه المضي إلى أعلى مستوى تحليلي وهو المستوى الدلالي الخالص الذي يتحوّل إلى لغة ذات مفاهيم شاملة وعالمية ، وقد تحدّث منظّرو هذا الاتجاه عن آليات تحليل النصوص بشيء من التفصيل، فقالوا: "ويكون موضوع الدراسة هو إعادة بناء النصوص في الحالات التالية: إعادة بناء قصد المؤلّف أو إعادة بناء نصه، وترميم النصوص القديمة، أو أجزاء منها، وإعادة بناء تفسير أحد القراء المعاصرين للنص، وكذلك إعادة بناء المصادر الشفاهية وتحديد مكانتها في إطار ثقافة تدوينية، وكذلك دراسة تاريخ المسرح والفنون" .

ورغم إقرار لوتمان بأنّ النص كلٌّ متكاملٌ، وينبغي التعامل معه على هذا الأساس، إلاّ أنّه يرى أن لا مفرّ من التعامل مع وظائفه كلّ على حدة، "ذلك أن تفكيك الوظائف الاجتماعية للنص ووصفها ينبغي أن يسبق تحليل التفاعل القائم بين هذه الوظائف" ، لأنّ من مقتضيات المنهج العلمي التدرّج من البسيط إلى المركّب، ومن القصد العام إلى أدنى مستويات التحليل، كما يلي :

[الهدف العام للنص> مستوى الوحدات الدلالية الأساسية> البناء التركيبي-الدلالي للجملة> مستوى الكلمة> مستوى مجموعات المقاطع > المستوى الصوتي].

الخاتمة:

إنّ جماعة (موسكو-تارتو) تنظر إلى الثقافة بوصفها كمًّا من النصوص، يرتبط بسلسلة من الوظائف، أو هي على الأصح آلية خاصة تتولّد عنها تلك النصوص ،فالثقافة لغة ثانوية، وهي النموذج السيميوطيقي الوحيد-من وجهة نظر هذه المدرسة- لإمكاناتها الدلالية الكبيرة، وقدرتها على صهر وظائف عدّة ضمن نسق واحد، ورغم اتّكاء النص الثقافي على اللغة الطبيعية إلاّ انّه يتميّز عنها، ويختص بكونه بنية متكاملة، ونسقاً متميّزا عن "اللانص" الذي يعتمد على اللغة الطبيعية وحدها، ولا يستطيع أن يكون أكثر من ذلك.

وتمثّل ثنائية "النص" و"اللانص" نقطة حيوية في سيمائية الثقافة، بسبب ما يمثّله النص من نظام، في مواجهة فوضى اللانص، رغم نسبية المفهوم، لأنّ ما يعتبر نصاً في ثقافة معيّنة هو لا-نص في ثقافة أخرى، أو في زمن آخر.

وقد ركّزت "الجماعة" على النص –أي النص الثقافي- بوصفه المفهوم الأساس للنظرية

السيميائية، ليس بسبب بنيته اللغوية، ولكن لما يمثّله من محمول ثقافي متكامل بغض النظر عن مادة هذا النص؛ قطعة موسيقية، أو احتفالا، أو ترانيم دينية، أو عرضاً مسرحيا.

الهوامـش والمراجـــع

1.د.أحمد يوسف: السيميائيات الواصفة- المنطق السيميائي وجبر العلامات، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2005، ط.1

2.د.أحمد يوسف: القراءة النسقية-سلطة البنية ووهم المحايثة، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2003، ط.1

3. جان ماري سشايفر وآخرون: العلاماتية وعلم النص، إعداد وترجمة د.منذر عياشي، المركز الثقافي العربي، بيروت/الدار البيضاء، 2004، ط.1

4.ديفيد بوشبندر: نظرية الأدب المعاصر وقراءة الشعر، ترجمة عبد المقصود عبد الكريم، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، (دت).

5.ساعد ساعد وعبيدة صبيطي: الصورة الصحافية دراسة سيميولوجية، دار الهدى، الجزائر، .2011

6.سيزا قاسم – نصر حامد أبو زيد: مدخل إلى السيميوطيقا، دار إلياس العصرية، القاهرة، 1986.

7.د.عبد الواحد المرابط: السيمياء العامة وسيمياء الأدب، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2010، ط.1

8.قادة غروسي: سيميائيات النص الفني- قراءة في الممارسات والتحوّلات، مجلة النقد والدراسات الأدبية واللغوية، جامعة سيدي بلعباس، الجزائر، 2005، العدد.1

9.نخبة من المتخصصين: مبادئ علم الاجتماع، الشركة العربية للتسويق والتوريدات، القاهرة، .2008

9.يوري لوتمان: تحليل النص الشعري، ترجمة د.محمد فتوح أحمد، دار المعارف، القاهرة، 1995.